



طوبى لنا (عرجون إلى الخلد طامح)



د. محمد العزراوي

مدير معهد الإمام مالك للتعليم العتيق
بسيدي سليمان

في مكتبة عمومية بكوليمية - قبل نيف وثلاثين عاماً - كان اللقاء الأول. وفي مسجد (تارماست) غرست شجرة العلم والعمل، وعلى قمة جبل أسدرم، وضياف وادي (غريس) كان البناء لشباب الدعوة، وفي ثانوية كوليمية أسست مجالس القرآن، وعقدت حلقة الذكر. وقطفت أولى ثمرات الدعوة، وعلى قمة جبل أسدرم، وضياف وادي (غريس) كان البناء لأفواج من جيل الصحو الإسلامية، هناك توثقت بيننا أواصر الأخوة في الله، وتوطدت وشائج المحبة على الله، وفي ليالي الصحراء الصافية الهادئة، وأيامها المشرقة النيرة، تعاهدنا على السير في طريق المصلحين، والركوب في سفائن الأنبياء والصديقين. لقد كانت آمالنا أكبر من أعمارنا، وطموحاتنا أعظم من إمكاناتنا... ودام الحال على ذلك ما شاء الله أن يدوم.. ثم عدت علينا عوادي الزمن، ففرقت شملنا، وبددت جمعنا.. فصرت أنا إلى غرب الغرب، وصار هو إلى غرب الشرق... والتقينا مرة أخرى.. ولكن عبر الكلمات، وكان البدء منه ومنه كان الختام. ووفاء بعهد، وقياماً ببعض حقه. أرسم معالم شخصيته من خلال

كلماته الوجدانية، ورسائله الإخوانية. فهو - كما عرفته شاباً وكهلاً، سرا وعلناً، حضراً وسفراً -

1- الرباني الحكيم : قال -رحمه الله- : " ذلك إن أخوتنا التي أزهرت في ظل الله ، ما كان ينبغي أبداً أن تبلى ولا تتجدد، على الأقل برسائل تعيد لها شبابها، وتذكرها بأيامها الخوالي.

2- الوفي للعهد : قال -رحمه الله- : " وأعود أدراجي لأذكر تلك الانطلاقة المباركة في كوليمية، فقد كانت انطلاقة خير، وما زلت -شهد الله- أقتات من زادها!!! ثم قال: "أما عن شوقك إلى لقائي -كما ذكرت أخي الكريم- فأقول لك -حفظك الله-: شوقك بعض الذي عندي! ومن ذا لا يشتاق إلى شقيق روحه، ومرجع ذكرياته الغالية؟ فإنما شوقي إليك رغبة قوية عساي أستم في لقائك عهدي بربي، عل روح الجهاد تتوقد نورا وضياء بين جوانحي من جديد! وقال -رحمه الله- : "لقد كان لذلك كله أثر طيب في قلبي، فكان الود أكثر إبراقاً وإزهاراً ، والشوق أكثر انقاداً وتطلعاً، عسى تعود أيامنا الخوالي.. فرحم الله زهاد هذه الأمة إذ قالوا فيما قالوا) :

(واشوقاه إلى أيام البداية!

3- الباحث -دوما- عن مجالس الإيمان : قال -رحمه الله- : "أخي محمد، معذرة، فإنني لم أنسك أبداً، ولكن الدنيا فتانة!!! فلتكن هذه الرسالة بداية محطة جديدة، تجدد ما جف فينا من منابع الإيمان!

4- المتشوق للمستقبل. قال -رحمه الله- : "أخي محمد! لا حاجة الآن لتذكر الماضي.. بل الحاجة إلى التفكير في المستقبل، ما دام الماضي شيئاً قابعا في ذواتنا نمتلكه بصفته تجارب وذكريات مفيدة، والغد وحده هو الذي ما زال بعيداً!!! أعني بعد التصور والإدراك، لا بعد الحصول والوقوع.. ولذلك فهل من فكرة لجعله لصالح الإسلام والمسلمين؟"

5- المهموم بصلاح الأمة -افرادا وجماعات- قال -رحمه الله- : "بلغ سلامي إلى الأخ محمد بن التقي، والحمد لله الذي جمع بينكما في دار الغربية، ووقفكما إلى ما فيه صلاحكما وصالح المسلمين. وقال: "أرجو أن تستغل ذلك جيداً في حياتك الدينية

المستوى خاصة من الناحية المنهجية، إن هذا ما يسمى (بعلم المصطلح بالفرنسية Terminologie) إنه علم جديد في الدراسات الإنسانية في أوروبا، أخيراً تم إدخاله في الدراسات الأدبية في البلاد العربية ويتبجح به كثير من مرتزقة الفكر!

أما ناحية المضمون فأقول لك بحق إنني قد استفدت كثيراً منه فأنا شخصياً لم أكن أفضل أبداً بين المسيحية والنصرانية فكان موضوعك بالنسبة لي علماً جديداً أضفته إلى ذاكرتي فجزاك الله خيراً، وهي نقطة جديدة أضفتها إلى ما ساجعله من تنبيهاتي للطلبة في الكلية إن شاء الله. حبذا لو أجد من يمدني بمثل هذه الدروس القيمة ! أطلب منك طلباً واحداً هو أن تستمر في كتابة مثل هذه المواضيع التي تدرس المصطلحات إنها مهمة جداً جداً!!! إن المصطلح يتضمن حضارة الأمة."

8- صاحب الصبور : قال : "شهد الله أن من أهم -بل قل أهم- أسباب تأخر هذا الخطاب عنك هو إحساسي

يقول رحمه الله تعالى :

إن أزمنا الفكرية الآن، هي أزمة منهج أساسا في فهم ذاتنا وحضارتنا.. وإن مصيبتنا -في ذلك- أن كثيرا من شباب الصحو الإسلامية -على الأقل في هذا الوطن- ينظر إلى أمور الدين والدنيا من خلال نصوص منثورة هنا وهناك، لا يدري لها مساق أصيل ولا تابع، وهذا حديث في هذا الكتاب أو ذاك لا يدري له سبب ورود، ثم بعد هذا وذاك، لا منهج في ترتيب في درجات الاحتجاج الدلالية، من عبارة نص أو إشارته أو اقتضائه أو مفهومه الموافق أو المخالف... ثم ينظر إلى النص مجزأ هكذا دون ربطه بلواحقه وسوابقه، ثم سبكه في عقده سبك استقرارا لشبيهه مما جاء في موضوعه، عسى تكتمل الرؤية وتصح النظرة. تلك -إن- قضية منهج!

بثقل الكتابة إليك، ليس بمعنى القدر، أبدا حاشاك ذاك، ولكن بمعنى أنني في كتابة خطاب إلى خليل قلب، أحتاج إلى تفرغ القلب تفريفا!.. تفرغ قلبه، حتى تصفو أمامي العلاقة الربانية الرفيعة التي ربطتنا.. فأكتب إليك، بناء عليها.. رأيت إلى أولئك الصالحين من السلف إذا حضر الطعام أحدهم، استفتى قلبه فإن وجد همة لبناء الأكل على قصد التعبد أكل، وإلا امتنع حتى يجد (من الوجد) قصد عبادة!

كذلك خطابك بالنسبة إلي فاعذرنني حفظك الله وسددك، هنا وهناك!

من السهل جدا أن أخط إليك أي شيء، فلا يكون في ذلك شيء شينا! وفتن الدنيا كثيرة.. تملأ الليل والنهار.. وطلبا لمقام التجرد يطول السفار، فإذا أهل إشرافه كانت الكتابة نورا من زيت الفؤاد، يشع من مقام التهذيب والتصفية."

9- الناقد البصير : قال -رحمه الله- : "وقد قرأت الورقات: (في الفكر الغربي والحركات الإصلاحية) وبلا مجاملة - لقد فرحت حقا أن سال قلمك

والدنيوية. كلاهما سواء. وقال: ثم هو ضمان إن شاء الله لاستقرارك - مهما طال بك السفر- بهذه البلاد الحزينة التي تحتاج إلى أمثالك، يصلحونها ويحتسبون". وقال -رحمه الله : لقد كان بودي أن أجلس إليك كثيرا، ويطول لقاؤنا لتجديد العهد، وبحث ما جد في حياة الدعوة الإسلامية، وهو كثيرا.. كان بودي -وأنا أعرف أن عقلك عقلي وفهمك فهمي وهمك همي- أن نلتقي ونسمر على مائدة العلم والبحث، لبعث العزائم أقوى ما تكون وأمتن ما تكون! وكذا أرشد ما تكون! والله يحكم لا معقب لحكمه!"

6- البار التقي : قال -رحمه الله- : "وأنت تعلم حال أبي -إن كنت تذكر، إذا قبض علي لا يدعني أفلت منه ولو لحظة! ولن يقبل بأي حال أن أغادر في زيارة ما لأحد. ولا أستطيع أن أسترد حريتي إلا بعد فراق والدي إذ يمضي في حاله إلى الراشدية. هكذا ما زلت مع أبي كما كنت. فماذا أفعل؟"

7- المتواضع الوقور : قال -رحمه الله- : "أما موضوعك عن (المسيحية والنصرانية) فهو موضوع جيد جدا - حقا لا مجاملة- لقد أكبرت فيه هذا

بمثل هذا، نعم هي معاني موجودة في كتب كثيرة، لكن المهم عندي هو تركيب هذه المعاني في موضوع وإنشاؤها إنشاء يجعل القراء لها، أكثر ارتباطا بها كلما أوغلوا في قراءتها. إن العالم -أخي الكريم- ليس هو الذي يحفظ القناطير المنقطة من الفتاوى والقضايا، ولكنه كما يقول المحققون: من يحسن الاستفادة مما يحفظ أو مما يقرأ سواء، وإذا طلب منه شيء أحسن العرض لما عنده، والتنزيل على المناط المحدد بتعبير الأصوليين، ولابن رشد الحفيد في كتابه (بداية المجتهد...) كلام جميل معناه: "وليس الفقيه من يحفظ العدد الكثير من مسائل الفقه -كما هو حال متفكحة زماننا- ولكنه الذي يستطيع إذا عرضت عليه نازلة أن يستنبط لها ما يناسبها". وقس على ذلك كل علم من علوم الأمة، وكل عالم من علمائها. إن أزمنا الفكرية الآن، هي أزمة منهج أساسا في فهم ذاتنا وحضارتنا.. وإن مصيبتنا -في ذلك- أن كثيرا من شباب الصحو الإسلامية -على الأقل في هذا الوطن-

ينظر إلى أمور الدين والدنيا من خلال نصوص منثورة هنا وهناك: فهذه آية من هذه السورة أو تلك، لا يدري لها مساق أصيل ولا تابع، وهذا حديث في هذا الكتاب أو ذاك لا يدري له سبب ورود، ثم بعد هذا وذاك، لا منهج في ترتيب في درجات الاحتجاج الدلالية، من عبارة نص أو إشارته أو اقتضائه أو مفهومه الموافق أو المخالف... ثم ينظر إلى النص مجزأ هكذا دون ربطه بلواحقه وسوابقه، ثم سبكه في عقده

سبك استقرارا لشبيهه مما جاء في موضوعه، عسى تكتمل الرؤية وتصح النظرة. تلك -إن- قضية منهج!

وقال -رحمه الله- : "وأعجبني الأخ عبد الوهاب بشري في موضوع (العلم أساس نجاح الحركة) وأنا أقول له: أنا من أنصار فكرتك، وإنني أرى أزمة الدعوة عندنا في المغرب (الذي أراه وأحكم عليه دون سواء) (هي أزمة علمية) أساسا، ووددت لو فصل الأخ في موضوعه ليبين ضرورة العلم الشرعي في تقويم واقع الناس وتوجيهه بشكل أعمق.

10- المجاهد الغيور : قال لي - رحمه الله- في رسالة شعرية بعنوان "رسالة إلى مغترب في بلاد الروم" :
فيا خل لا نسيان -ما الدجن عابس-
لعهد على الإدلاج والبرد قارح
فقد شاقني قدح السناكب للسردي
بصبح تجليه الخيول الضوايح
.....
.....

عسى يستعيد النخل هيبه طلعه
وينزف عرجون إلى الخلد طامح
فلا عاش من ألقى على الذل باكيا
وطوبى لجلد طوحته الطوائح